بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، وعلى خاتمهم المجتبى .

وبعد .. فهذا بحث في أولى القضايا الكبرى في العقائد والأديان والفلسفات :

وقضية وجود الله ، منشئ الكون ، وواهب الحياة ، وخالق الإنسان .

لقد كانت هذه القضية قليلة الأهمية عند علمائنا القدامى الذين اشتغلوا بعلم التوحيد والكلام ، حيث لم تكن تشغلهم قضية وجود الله كما شغلتهم قضية صفاته تعالى .

فاشتغلوا بالصفات الإلهية : هل هي عين الذات الإلهية أم غيرها ، أم هي لا عين ولا غير ؟!! والصفات الخبرية التى يُوهم ظاهرها مشابهة الخلق : هل تؤوّل أم تبقى كما

obeikandl.com

هي بلا تشبيه ولا تخييل ؟! .. معركة حامية الوطيس بين أهل السنة والمعتزلة من جانب ، وبين أهل السنة أنفسهم من سلفية وأشعرية من جانب آخر .

أما وجود الله فكان عند الأطراف كلها من الضروريات التى تقتضيها الفطرة ، وإن لم تخل كتب الكلام والفلسفة من إقامة الدليل على وجوده سبحانه باعتباره محدث الكون أو واجب الوجود .

أما المتكلمون ، فعوَّلوا على دليل الحدوث ، على ما في عرضه من جفاف ، وما في مضمونه من قصور . يقول هذا الدليل : العالم متغير ، وكل متغير حادث ، لا بد له من محدث ، وهو الله تعالى .

وفي هذا الدليل ثغرات ذكرها المتكلمون أنفسهم ، وبيَّنها الفلاسفة وغيرهم .

وأما المتفلسفة فعوَّلوا على دليل الإمكان : الذي أشرنا إليه في صلب البحث .

وقليلون من عوَّلوا على الأدلة الكونية التى بثَّها الله في الأنفس والآفاق ، مثل الجاحظ ، وابن القيم .

ومنذ أكثر من قرنين تعرَّض الدين في أوربا لمحنة شديدة ، بسبب موقف الكنيسة هناك من العلم والعلماء ، والفكر والمفكرين ، ومما جعل كثيراً من الناس يكفرون بالدين وبالله ، وإن كانوا في الواقع لم يكفروا إلا بدين الكنيسة وإلهها ، ولو أتيح لهم أن يعرفوا الإله الحق ، ودينه الحق ، لعادوا إلى حظيرة المؤمنين .

ومهما يكن من تعليل إلحادهم في ذلك الحين فقد ألحدوا ، وتطاير شرر الإلحاد من أوربا إلى غيرها ، وقامت على مبدأ الإلحاد دول كبرى تنص دساتيرها على أن : لا إله ، والحياة مادة . كما في دستور روسيا السوفييتية أم الاشتراكية ومن دار في فلكها من الدول .

وقد صار العالم الآن قرية كبرى ـ كما قال بعض الفلاسفة ـ فسرت عدوى الإنكار فيه وأشد وأسرع من عدوى الأمراض والأوبئة ، فقد اتخذت الدول من إجراءات الوقاية والحجر الصحِّي ما يحول دون انتشار الأوبئة الفتَّاكة ولم تتخذ معظمها مثل ذلك في الحيلولة دون انتشار الأفكار الضارة ، والعقائد المخرِّبة ، وهي أشد فتكاً وأعمق خطراً .

فلا غرو أن ابْتُلِيَ عالمنا العربي والإسلامي بفئة من الملاحدة ، وتعلموا في أوربا وأمريكا وشربوا الثقافة الغربية المسمومة ، وقلدهم غيرهم ممن تعلموا في ديارنا ، في مدارس ومناهج ، صنعها المستعمرون ووجهوها كما شاءوا . وزاد الطين بلة أن أصبح للشيوعية نفوذ في ديار الإسلام لظروف وأسباب داخلية وخارجية ، وفُتن بعض الشباب بالاشتراكية ، ولعبت بعقولهم الماركسية . بتزيين أبالستها الذين صار لهم في أجهزة التوجيه والإعلام مكان أي مكان ، وكان من نتيجة ذلك أن وجدنا مَنْ يكتب في الصحف وينشر في الكتب إنكار الله جهرة علانية في قلب بلاد العرب والإسلام .

ووجدنا هذه الأفكار تُحدث بلبلة واضطراباً في أنفس كثير من الشباب الطيبين الذين ليسوا بملحدين ، ولا يساريين ولا يمينيين . وكثيراً ما جاءتني أسئلة في الإذاعة[1] وفي أعقاب المحاضرات والندوات يسأل أصحابها : ما الدليل على وجود الله تعالى ؟ وهم لا يشكون في وجوده سبحانه ولكنهم يريدون أن يقنعوا الشاكين ويفحموا المشككين .

---

(١) كتبت هذه المقدمة قبل أن ينشأ (التلفاز) في قطر .

ولهذا قلت لإخواننا العلماء في قَطَر والمملكة العربية السعودية حين سمعت بعضهم يجادل في قضية الصفات بين السَلَف والخلف ، وما فيها من جدل وكلام طويل الذيول : إن المعركة اليوم ليست مع الأشاعرة ولا الماتريدية ولا المعتزلة ولا الجهمية . إن معركتنا الكبرى مع الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله ولا نبوّة ولا كتاب .

ليست معركتنا مع الذين يقولون عن الله تعالى : ليس له مكان ، بل مع الذين يقولون : ليس له وجود ، وعلينا أن نخلقه ، كما قال أحدهم !!

ليست معركتنا مع الذين يُؤوِّلون صفات الله تعالى ، بل مع الذين يجحدون الله بالكلية .

وأي تحويل للمعركة عن هذا الخط ، يعتبر توهيناً للصف ، وفراراً من الزحف ، وإعانة للعدو .

ومن الإنصاف أن أقول : إني وجدت تجاوباً رائعاً من علماء قَطَر والمملكة العربية السعودية نحو هذا الاتجاه ، فيما عدا القليل منهم .

ومن هنا وجدت : أن إقامة الأدلة على وجود الخالق جلَّ جلاله ، جزء من معركتنا مع الإلحاد ، لتسليح الشباب المؤمن ، وتثبيت الشباب القلق ، وإلزام الفئة المعاندة .

إن إثبات العقائد الأخرى من رسالة محمد ﷺ والإيمان بالآخرة ، وإثبات ما جاء به الرسول من الهدى ودين الحق، لا يتم ولا يستقيم إلا إذا قام الأساس الأول للعقيدة، وهو الإيمان بوجود الله . وإلا فلا يُجدي الكلام عن محاسن الإسلام ومزايا الشريعة الإسلامية ، مع من لا يؤمن بالأديان كلها ، لأنه يشك في وجود الله ذاته أو يكابر فيه .

ومن أساتذتنا كالدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق (رحمه الله)[1] ـ مَنْ يرى أن الإيمان بوجود الله أمر فطرى ، لا يحتاج إلى إقامة أدلة نظرية عليه .

وهذا صحيح . لكن إذا نفقت سوق الشبهات ، وانتشرت سموم الشكوك وجب أن نقاومها بسلاحها نفسه مخاطبين العقل ، والفطرة معاً . وهدفنا ـ كما قلت ـ أن نُسَلِّح الفئة المؤمنة الواعية لترد على الجاحدين ، وتنقذ المتحيرين ، وتقتلع بذور الشك من قلوب الشاكين .

---

(١) في كتابه «الإسلام والعقل» وفي رسالته عن «الإيمان» .

ومن الخطأ أن يُحسب القرآن كتاباً يُنشئ العقائد بالأخبار فحسب ، كما هو شائع من الاستدلال بآيات القرآن على أنها أدلة نقلية ، في مقابل الأدلة العقلية .

كلا .. إن القرآن لا يكتفي بالخبر عن الحقائق الكبرى ، بل يتبعة بإقامة البراهين الساطعة عليها ، ودفع الشبهات عنها ، بحيث يُقنع العقل ويرضي الفطرة .

هكذا وجدنا القرآن الكريم في قضية وجود الله . وفي قضية التوحيد ، وفي قضية الوحي والرسالة ، وفي قضية البعث والجزاء ..

وقد استعنت بما كتبه القدماء والمحدثون في هذا الموضوع ، محاولاً تجليته ، وضرب الأمثلة المتنوعة ، لزيادة الإيضاح والإقناع ، ولعل الجديد فيه هو ترتيب الموضوع وتقسيمه وتنويع الأدلة عليه ، مع ربط ذلك كله بالقرآن الكريم . فهو قد أرشد إلى أصوال هذه الأدلة وأنواعها وأشار في آياته البيِّنات إلى أمهاتها .

وقد كتبت هذا البحث في بادئ الأمر لطلاَّب المرحلة الثانوية من المعهد الديني في قَطَر . باعتباره جزءاً من المقرَّر عليهم في دراسة العقيدة أو علم التوحيد .

وهذا ـ فيما أعلم ـ اتجاه جديد في تدريس العقيدة في المعاهد الدينية والكليات الشرعية أو الإسلامية .

فالسائد في تلك المعاهد هو دراسة العقائد على الطريقة التي كُتبت بها في العصور الماضية ، والاهتمام بنفس القضايا التي اهتم بها القدماء والمتأخرون : مع ما جَدَّ في عصرنا من قضايا فكرية جديدة . وما جَدَّ من معارف كونية وإنسانية لا بد من استخدامها في ميدان العقيدة .

ثم رأيت من الخير أن أنشر هذا البحث بعد أن زدت عليه ، وأضفت إليه ، ونقَّحت فيه ، راجياً أن ينفع الله به طلاَّب الحقيقة عامة ، وطلاَّب الدراسات الإسلامية خاصة .

وما توفيقي إلا بالله . .

الفقير إلى عفو ربه

يوسف القرضاوي